في شعر عائشة التيمورية

١٨٤٠ — ١٩٠٢

للأستاذ محمد سيد كيلاني

جمعت عائشة التيمورية شعرها في ديوان سمته « حلية الطراز » به ١٣٩٦ بيتاً ، منها ٥٥٤ بيتاً في باب الغزل ، والباقي في أغراض مختلفة

وقبل أن نخوض في غزل عائشة نريد أن نسأل أنفسنا سؤالاً وهو : هل يحق للمرأة أن تقول شعراً في الغزل ؟ وإذا حق لها ذلك ففيمن تتغزل ؟ أتتغزل في امرأة مثلها ؟ أم تتغزل في رجل ؟ الواقع أننا إذا نظرنا إلى ما وصل إلينا من آثار شاعرات العرب لا نجد لهن بيتاً واحداً في الغزل . فما لا شك فيه أن عائشة انفردت دون سائر الشاعرات العربيات بما نظمته في هذا الباب وقد تكون سلكت بذلك مسلكا وعراً ، وجاءت أمرا إدا

إن طبيعة المرأة لا تسمح لها بقول الشعر الغزلي . وذلك لأنها إذا تغزلت بامرأة مثلها كان هذا شذوذا منها ، وهي لن تجرؤ على التغزل بالرجل ، ونظرة المرأة إلى الرجل تختلف عن نظرة الرجل إلى المرأة ، فإذا تغزلت المرأة في الرجل اختلف غزلها اختلافا كليا عن غزل الرجل فيها

والآن نستعرض بعض أمثلة من شعر عائشة في الغزل لنرى من أي نوع هو ، ومدى ما فيه من صدق الشعور . قالت :

أفديه حين يميل الخصر منه بدا ... يهتز من خوف ردف خص بالثقل
بكر الكميت إذا دارت بحضرته ... من وجنتيه غدت حمراء في خجل
لو قابل البدر نشوانا بغرته ... لصار طالع بدر الأفق في زحل

وقالت :

أفديه لما صحا من سكره سحرا ... وللتطلي أثر في خده باقي
وقام يخطر والأرداف تقعده ... وخصره يشتكي سقما لمشتاق
وقال لي بلسان السكر خذ بيدي ... فقدت من لحظه الماضي بخلاق

وقالت :

الصب بالأعتاب أصبح يرتجي ... عطفاً ولكن المنال بعيد
أنسيت صدقي في حروب عواذلي ... وجيوشهم شاكي السلاح شديد
قصدوا بواري بالسلو وما دروا ... أن اصطباري في هواك أكيد
ولقد أذعت هواك بين عواذلي ... وسهامهم تدمي الحشا وتبيد

فأنت ترى أن عائشة تذكر الحواجب والوجنات والخصر النحيل والأرداف الكثيرة والخدود والألحاظ ، وتحدثنا عن وقوفها أمام أعتاب الحبيب وما كابدته من عناء وألم في سبيل الحب ، وما لقيته من عذل العذال وكيد الوشاة والحساد ، وغير ذلك مما يجري على ألسنة الرجال ، ويتغنى به الشعراء عادة في قصائدهم الغزلية . فكأنها — والحالة هذه — تقمصت شخصية الرجل ، وخلعت عنها أنوثتها

نصف شعر عائشة في الغزل . فإذا قيل إنها كانت تروض القول كدأب الشعراء في ذلك العصر ، فلم اختارت باب الغزل بالذات لتتخذه ميدانا للتمرن على القول ؟ ولم أتت بهذا القول الماجن الذي يكاد يكون مكشوفا ؟ إن كثرة تغزل المرأة بواحدة من جنسها ، يخلق عندها شذوذا ، ويبتعد بها عن طبيعة الأنوثة ابتعادا كبيرا . وحبذا لو أنها لم تطرق هذا الباب . والظاهر أن عائشة لم تكن مكتملة الأنوثة ، ولذلك أخفقت في حياتها الزوجية إخفاقا تاما . وهجرها زوجها ، ثم إنها لم تذكر هذا الزوج ولا في بيت واحد من شعرها

ولقد أرادت عائشة أن ترفع لواء النهضة النسوية في مصر وحاولت أن تخلق حولها جوا أدبيا ، لذلك صنعت هذا الغزل وكانت فيه متكلفة ، ونشرته في حياتها ، وهذه جرأة عجيبة وبخاصة في العصر الذي عاشت فيه ، ولو أنك طلبت من فتاة تعيش في هذه الأيام أن تقول مثل هذا الغزل ، لوجدت منها إعراضا تاما

* * *

وكان بعض أدباء عصرها قد نظم قصيدة جاء فيها :

ماذا تقول إذا اجتمعنا في غد ... وأقول للرحمن هذا قاتلي

فأجابته قائلة :

إن كان موتك من قسي حواجبه ... كالنون أو من سحر جفن ذابل

أو غرة مثل النهار وطرة   كالليل أو من جور قد عادل
أو من لحاظ تسحر الألباب إذ   تروى لنا سلب النهى عن بابل
فهى التى فعلت ولم أشعر بما   فعلت فكيف تلومنى يا سائلى
أنا ما قتلت وإنما أنا آلة   فى القتل فاطلب إن تردمن قاتل
ومتى أريد قصاص سيف أو قنا   هل من سميع مثل ذا أو قائل
والله قد خلق الجميل ولم يقل   هيموا بلين قـده المتمايل
ما قال ربك قط يا عبدى أطل   نظر اللاح ويا جميلة واصلى
فعلام تطالب بالدماء وتدعى   زورا وتطمع فى محال باطل

لبث الشعراء أجيالاً طوالا يشكون من سهام العيون وسحر الألحاظ، ويبكون لهجر الحبيب وامتناعه منهم، ويتألمون لقسوته وإعراضه، ويطلبون وصاله ويتمنون قربه، فلم تنهض للرد عليهم امرأة واحدة. وفى الحق أن هذا الجواب طريف ومفحم فى نفس الوقت. طريف لأنه لم يسبق له مثيل فى الشعر العربى. ومفحم لقوة حجته ووضوح بينته. فأنت ترى مقدمة منطقية تنتهى إلى نتيجة لا يسعك معها إلا التسليم. أما المقدمة فهى أن المرأة آلة وليست فاعلة للقتل. والنتيجة التى تصل إليها أن الآلة لا تسأل وإنما يسأل القاتل. ثم انتقلت بعد تلك الحجة المنطقية إلى حجة دينية لا تقل إفحاما وهى:

ما قال ربك قط ياعبدى أطل   نظر اللاح ويا جميلة واصلى

ومن هنا تبطل دعوى من يطلب بدمائه المسفوكة لأن دعواه أقيمت على غير أساس كما تقول عائشة

ولو أن الشعراء من قديم الزمن سمعوا هذا الرأى واقتنعوا به لأراحونا من بكائهم ونحيبهم على هجران الحبيب.. وأعفونا من الشكوى من بعده وصده، ولفقد الشعر العربى جزءا كبيرا من ثروته

ولقد أضحكنى قولها:

وإذا رأيت الحب من ألم الجوى   هد القوى بشدائد البأساء
عالجه سلفات الحديد تكرما   من قلبك الجافى بكل رضاء

فاستخدام سلفات الحديد هنا مما يضحك. وهذه دعابة لطيفة

* * *

وكانت الشاعرة قد أصيبت برمد شديد لازمها شهورا. وقد عانت منه مشقة كبيرة. فنظمت فى ذلك عدة قصائد وصفت فيها ما فعله الرمد بها وما جره عليها من البلاء. وهذه القصائد جديدة فى موضوعها. والظاهر أن عائشة وجدت مجالا جديدا للقول، فانتهزت فرصة إصابتها بهذا المرض، وأنشأت فى ذلك جملة قصائد. وكان من المحتمل أن تصور لنا حالتها النفسية فى هذا الشعر، وتنقل لنا إحساسها الداخلى الذى سيطر عليها آنئذ. ولكنا — مع الأسف الشديد — نقرأ هذه القصائد فنجد أن هم الشاعرة هو التلاعب بالألفاظ والتعابير. وهذا مما لا يفعله الحزين الذى برح به الألم، وأضناه السقم. قالت:

طفا ماء الجفون وما دنت بى   سفين الشوق من جودى الوصال
وقد أصبحت فى بحر عميق   من الظلماء مجهود الملال
ضللت بليل أسقامى طريق   إليكم سادتى فانعوا ضلالى
فوا أسفا على إنسان عينى   غدا فى سجن سقم واعتقال
حجبت بسجنه عن كل خل   وصرت مخاطبا صور الخيال
أإنسان العيون فدتك روحى   يهون لعود نورك كل غالى
أترضى البعد عن عينى أليف   أضر بمـزنه ضيق المجال

وأنت تحاول أن تلمس شعوراً ولو تافها فى هذه القصيدة فيعجزك ذلك. وكذلك كل ما نظمته فى هذا الموضوع. إلا أنك ستلاحظ أنها اتخذت من قصائدها الرمديات ميدانا للغزل. فشخصت إنسان عينها وشرعت تتغزل فيه وتتألم لبعاده، وتتمنى قربه. ومثال ذلك قولها

وقالوا مات، قل موتوا بغيظ   لجل القصد حيا قد أتانى
وجدد بالوصال حياة روحى   أعـوذه بآيات المثانى
فدعنى يا خلى والخل تخلو   ونكحل بالثنا جفن الأمانى
مرآة الجمال ووجه بدر   دعانى يوسف الثانى دعانى
حبيبى بالذى أعطاك نورا   تعود به كما ترضى عنانى

فهذه الأبيات تكشف عن نفسية خاصة. فالشاعرة قد استحضرت فى ذهنها صورة يوسف الصديق وقد امتنع من امرأة العزيز حين همت به وغلقت الأبواب وقالت هيت لك فقال معاذ الله. فشبهت نفسها بامرأة العزيز وإنسان عينها بيوسف. ثم تخيلت أنها نهضت وغلقت الأبواب وراودت يوسف عن نفسه

وهمت به فلم يتمنع عليها ولم يقل معاذ الله ، وهذا الغزل مهما كان من أمره — تظهر فيه الأنوثة . وهو بذلك يختلف عن غزلها المتقدم الذى ذكرت فيه الأرداف والأعجاز ، والذى تقمصت فيه شخصية الرجل ونظرت إلى المرأة بمنظاره وفكرت فيها بفكره

وعائشة أول شاعرة تقول هذا الغزل الأنثوى المكشوف . وهى بذلك قد خرجت على العرف والمألوف . ولكنها كشاعرة لا يضرها هذا ولا ينقص من قيمتها ولا يحط من قدرها . وأى شاعر موهوب حافظ على العرف ووقف عند التقاليد ؟!

وقد كررت فى قصائدها الزهديات كثيرا من الصور والمعانى والتراكيب ..ومثال ذلك قولها

طفا ماء الجفون وما دنت بى ... سفين الشوق من جودى الوصال

وقولها :

سفينة العين قد فازت من الغرق ... وأشرقت تزدهى من ساحل الحدق

فليس أمامها غير صورة سفينة .. فتارة تقول « سفينة الشوق » وتارة أخرى تقول « سفينة العين »

° ° °

ولعائشة التيمورية رثاء جيد . ولا عجب فى ذلك فالمرأة بطبيعتها تجيد البكاء وتحسن العويل وبخاصة إذا أصيبت بفقد بنتها أو ابنها أو والدها أو أمها ، ومن أحسن مراثيها وأشهرها قصيدتها التى رثت بها بنتها « توحيدة » ومطلعها :

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدور

ولكن يجب أن نلاحظ أن الأبيات الأولى من القصيدة فيها تكلف ، وأن الشعور الداخلى فيها لا يكاد يرى .وأن الجزء المؤثر من هذه القصيدة يبدأ من قولها

طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحرا وأكواب الدموع تدور

وبعد أن ذكرت المرض وما فعله ببنتها وتحدثت عن الطبيب الذى جاء وبشر بالشفاء ، أدارت حواراً على لسان بنتها فأنطقتها بأبيات إذا قرأها الإنسان تحدرت منه العبرات .وهذا هو الشىء الذى أسبغ على تلك القصيدة روعة ، وأكسبها قوة وضمن لها الخلود . انظر إلى قولها

أماه قد عز اللقاء وفى غد ... سترين نعشى كالعروس يسير

وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير

قولى لرب اللحد رفقا بابنتى ... جاءت عروسا ساقها التقدير

وتجلدى بإزاء لحدى برهة ... فتراك روح راعها المقدور

عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خلفت عنى لها تأثير

صونى جهاز العرس تذكارا فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور

جرت مصائب فرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونفذ المسطور

للكلام بقية

محمد سيد كيلانى

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثانى أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة